الشوق

بقلم : أحمد الخميسى

هل تعرفون الحزن ؟ الحزن المرهق الذى ينوء به القلب ..

هل تعلمون ما هو الألم ؟ الألم الكظيم الذى يترك فى النفس بقعا كالمرض ؟ .

هل كابدتم الشوق ؟ شوق صبى صغير ـ لم يتعد التاسعة ـ لأبيه ، لوجه أبيه ، لكفه الثقيلة ، لرائحة انفاسه ، للحديث معه ، هل جربتم الشوق ؟ هذا الشوق ؟

كان يسير فى المساء وقد تناثرت سحابات رمادية على صفحة السما .. الوقت حوالى العاشرة .. تكالب عليه الضيق وتضافر الألم فأخرجاه من البيت ـ أما الدمعة ـ فالقشة التى قصمت ظهر البعير .. تلك الدمعة التى ترقرقت فى عين أمه المكبة على الماكينة ذات الصوت المزعج ، ترثى ذكريات بهيجة جميلة الحواشى .

أخرجه الصمت .. كل تلك الكآبة الموحشة التى كادت تخنقه بالحقيقة فخرج يستنشق الهواء مبتعدا عن جو البيت .. هواء الشتاء البارد فى الشارع الممتد الطويل يطبق عليه ذاك المساء ..

من زمن بعيد .. منذ خمسة شهور هى عمر هذا الزمن البعيد .. اختفى أبوه فجأة ، عنه وعن أمه وأخيه وتلك الأخت الصغيرة ذات الجدائل الفاحمة السواد ، فقد تزوج من شابة صغيرة حلوة رغم كبر سنه ، وعرف بعدها عنوان مسكنه الجديد من قريب له فكتبه خفيفا بقلم رصاصى على ورقة صغيرة دسها فى كتاب مدرسى ، فقد كان الطريق ـ ان أراد ـ الى أبيه .. هناك يراه ويريه أن الشوق كامن فى الأعماق ، أتذكر العناق ؟ ليتك تدرك ماذا يعنى أن يعانق الابن أباه .. القبلة على الوجنة قبل النوم وفرح الحياة ، واخضرار الحلم .. أبى .. يا أبى .. أين انت ؟ .. أبى .. الحياة من بعدك شىء يجثم على الصدر .. شىء

يئن من الألم .. باهتة وفيها اصفرار ، والليلة بعد الليلة تنوح كثاكلة الليالى .. معذبة طعينـــة .. والحزن .. الحزن يا أبى لو تـدرى غائـر العمق فى عينى أمى ..

من يومهـــا وكلما أظلمت نفســـه الشفافة وناءت بثقل المأساة .

.. وكلما ضاق صدره بانطواء أخيه الأصغر .. انطواؤه البـــائس الذليل الذى يبـــدو فى جلســـته وفى عباراته المقتضبة المنخفضة ، من ذلك اليوم الذى ما عاد يسمع فيه ضحكات أخته الطفلة الجذلى الطروب ذات الجدائل الفاحمة السواد ، ولا قهقهاتها الفياضة بالحياة ، وحين كان يسمع السؤال لا يموت على شفتيها : ماما .. أين أبى ؟ أين هو ؟ فاى أحزان كانت تنسكب فى نفسه ، من يومها وكلما نهش الشوق بالشوق قلبه . اخرج العنوان .. الكلمات المتجاورة .. وتمعن فيهـــا ثم اطلق تنهيدة خفيضة حرى لا تصدر عن صبى فى التاسعة ، وفى التاسعة فقط انضـــجته الأمور قبل الأوان ..

الشارع بارد صامت كجسد الميت .. ينفلت فيه بين كل آونة واخرى ، شخص مسرع ، يغوص راسه بين كتفيه ، ولخطواته صدى .. والهواء يلذع ساقى الصبى ، ونصف فخـذيه العاريتين ، بينما يداه مدسوستان فى جيبى سرواله البنى القصير ..

بجوار دار السينما الفخمة قام منزل ابيه مستطيلا .. هناك فى الدور الرابع يسكن أبى .. نعم .. رفع عينيـــه العسليتين الى أعلى ـ واســـنانه تصطك ـ ناظرا الى الشرفة التى ينبعث منها الضوء .. وارتعشت شفتاه .. أى احساس غريب أكد له أن أباه فى تلك الغرفة فى هذا الوقت ؟ .. هل هـــذه هى حجرة مكتبه ؟ أم الجلوس ؟ وهل يا ترى ما زال يجلس مضـــطجعا الى الخلف ويداه متشـابكتين على ركبتيه ؟ طبعـا .. هو يضحك الآن ؟ هه ... مم .. وهل تناول عشاءه ؟ أما زال كما هو لم يتبدل ؟ .

الشوق الحار .. والنســمة الباردة تلسع خده .. يداه مدسوستان فى جيبى سرواله .. نحيف قصـــير ممتلىء بالشوق والرغبة ..

ثقلت منه القدمان امام مدخل العمارة بلا ارادة ، كان شيئا قويا يجذبها .. تساءل .. هل يصعد كى يراه ؟ هو أبى ولا شىء فى العالم يبرر أن يحرم الانسان نفسه من أبيه .. هل يصعد له ؟ .. هـ .. نعم .. لا .. أحس انه يغـرق مختنقا فى «لا» ويطفو مستنشقا الحياة فى « نعم » .. نعم فلتصعد ، أصعد .. ؟ لا .. بل نعم .. الأمر بسيط ، اسرع على درجات السلم واطرق الباب وألق بنفسك وكل حنينك ، واخلص الشوق فى حضن أبيك منفجرا بالبكاء .. أيدرك

يا ترى كيف من بعده اكتاب المساء ؟ لقد هجرهم ولم يفكرحتى فى السؤال .. حتى السؤال ، فكيف يذهب له بنفسه وماذا يقول ؟؟! اتطحن كبرياؤه حنينه ؟؟ ام يطحن الحنين تلك الكبرياء ؟؟ .

الشارع بارد صامت ، بروده كلمة «لا» مظلم كاعماقها ، والوقت يزحف .. فماذا بعد ؟ اية قرارات تلغى أخرى ، واية رغبات متناقضات تحدث النفس ؟!

وامه .. كيف نسيها .. امه التى تشبه فى جسدها هذه السيدة المارة هناك متدثرة بمعطفها .. امه الجالسة الآن على الماكينة مستمرة فى حياكة الثياب ، كم من آلام قد تجرعتها ، غرست فى قلبها مرارة الحرمان .. علقم .. علقم الشوق ان لم يطفئه اللقاء .. علقم .. لقدهجرهم حتى دون السؤال .. ما ضره لو سال ؟ لو فعل لأوجد المبرر كى أراه .. هل يصعد ام لا ؟ .

مرقت عربة مسرعة كالسهم ، وفى تثاقل جرجر قدميه متجها لنهاية الشارع مبتعدا عن المنزل ، اضواء المصابيح البرتقالية الشاحبة تلقى بظلال أعمدتها على الرصيف ، توقف ثم لوى عنقه والتوى معه قلبه ناظرا للشرفة التى ما زال ينبعث منها الضوء .. معذب هذا الرجاء .. هل يمكن أن يخرج أبوه للشرفة فيراه ؟ دار نصف دورة بقدميه فاستدار جسمه النحيل الى المنزل ، اغرورقت عيناه بالدمع وهو ينظر هناك معذب هذا الرجاء .. هل يراه ؟ يا ليته يخرج ، جذب نفسا عميقا ثم صافحت عيناه الأرض .. ونظر الى باب العمارة الحديدى البارد كالكبرياء .. لعله عائد من مشوار مع زوجته .. زوجته ؟ وما شكلها ؟ وتجمعت فى نفسه احاديث متفرقة واقاويل عنها من أقاربه ، وتخيلات من رأسه ، فبصق فى اشمئزاز « تفو » وحث الخطى وقد احنى ظهره عائدا لمنزل أمه تتسابق دموعه فتدفىء مجراها البارد على وجنتيه .. تابع مسيره بالشارع طك .. طك .. فى ساعة متأخرة بالليل .. طك .. طك .. القلب ينبض مثقل بالحزن .. طك .. طك ..

ازداد الليل كثافة .. وارتعش نجم صغير فى ركن السماء .. قطرات مطر خفيفة تبلل الأرض .. ظلال المصابيح على الرصيف .. أضواؤها البرتقالية الشاحبة مرتجفة ..

عاد يلتفت برأسه الى تلك النقطة التى ما زال ينبعث منها الضوء وتساءل .. ترى هل تناول عشاءه ؟ وكيف ؟ الم يتغير .. وهل يا ترى ما زال يذكره ؟ .